رسائل
الفكرة
الإسلامية

١



التربية في القرآن

محمد عبدالله السمان

رسائل الفكرة الإسلامية

١

التربية في القرآن

محمد عبد الله السمان

الطبعة الخامسة

١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

الى رجــال التربية الحديثــة ــ المعرضين عن

كتاب الله المتطفلين على موائد التربية الغربيــة

« إنَّ هذا القرآنَ يهدِي للتي هِي أقوَمُ ، ويُبَشِّرُ المؤْمنين الذين يعملونَ الصالحاتِ أنَّ لهم أجْراً كبيراً » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

موقف المسلمين اليوم من كتاب الله موقف يستثير الخواطر الأليمة ، ويستفز الأعصاب الآمنة : ففريق يعرض عنه اعراضا كاملا كأن بينه وبين كتاب الله عداء قديما مستأصلا ، وفريق آخر يقبل على كتاب الله — ولكن ليتلو ما تيسر منه قصد التسلية ، ويكتب ما يروقه قصد البركة ، وكلا الفريقين لا خير فيه ..!

وهناك فريق ثالث يهمه أن يجعل من كتاب الله ميدانا للمناقشة البيزنطية فى أتفه المسائل ، وميدانا للجدل المتعب الممل فى الشكليات التى لا تمس جوهر القرآن فى شىء .

والواقع أننا لسنا فى حاجة الى مسلمين يحملون كتاب الله فى جيوبهم ، ولا الى مسلمين يعلقونه فوق صدور أبنائهم ، ولا الى مسلمين يتلونه تلاوة لا تتجاوز حناجرهم ، ولا الى مسلمين يتخذون منه الأحجبة والتعاويذ والأدعية ، ولا الى مسلمين يجعلون منه ميدانا للنقاش المتعب والجدل الممل ولكنا فى حاجة الى مسلمين ينفذون مبادئه ويحققون مطالبه

ويتفهمون معانيه العذبة ، وتشرب نفوسهم ما استوعبه من تربية رفيعة عالية .

فهل آن للمسلمين أن ييمموا وجوههم شطر كتاب الله ، فيدرسوا تربيته العالية دراسة بها تسمو أنفسهم وتعلو هممهم ، وتنهض أمتهم وتستيقظ شعوبهم ؟

وهل آن لرجال التربية أن يحسنوا الظن به ، فيجعلوه الأصل الأول ، ويغترفوا من منهله العذب ما يتوج رسالتهم فى الحياة ؟

ارجو أن يكون ذلك قريبا . . !

محمد عبد الله السمان

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة الطبعة الخامسـة

هذه الرسالة الأولى من رسائل الفكرة الاسلامية ((التربية فى القرآن)) طبعت للمرة الرابعة ونفذت الطبعة منذ أكثر من عشرين عاما ، ولم تسمح الظروف باعادة الطبع ، وشاء الله أن تأخذ ((دار الاعتصام)) على عاتقها القيام بنشر مجموعة رسـائل الفكرة الاسلامية القديم منهـا والجديد فالرسائل العشرة نفدت جميع طبعاتها ، وسوف نعمل بعون الله تعالى على اعادة طبع رسالة منها ومعها رسالة جديدة ، وهـذه رسالة ((التربية فى القرآن)) نقدمها فى طبعتها الخامسةللأخوة القراء راجين أن تحظى بتقديرهم ، ونحظى نحن بحسن ظنهم فينـا ..

نسأل الله أن يوفقنا الى السداد فى القول ، والشجاعة فى الرأى ، والاخلاص فيما نكتب وفيما نقول ...

محمد عبد الله السمان

التربية فى القرآن

ما أحوج العالم أجمع الى التربية الصحيحة ذات القواعد السليمة ، والأسس المتينة .

ولرجال التربية قديمهم وحديثهم مذاهب شتى ومشارب مختلفة فى التربية ، ولا تنجو هذه المذاهب وتلك المشارب من تغيير وتبديل ، ولا تسلم من نقد وتجريح ، ولا غرابة فى هذا فالفكر البشرى مهما أوتى من نضارة فلن يصل الى الكمال المطلق أبدا .

ولسنا مغالين اذا قلنا : ان هناك مصدرا واحدا للتربية لا يعتريه نقص ، ولا يعتوره اضطراب ، ذلك المصدر هو القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ولكن هل لهذا المصدر السليم من نصيب موفور فى تفكير رجال التربية المسلمين ؟ نستطيع أن نقولها : لا . مغلظة مكررة ، فما لهم والقرآن ؟ انهم لا يزالون على موائد التربية الغربية يلتقطون فتاتها ، ويتخطفون بقاياها .

والحق اننا نظلم القرآن حين نقرأ منه آيات التبشير فتنبسط أسارير وجوهنا ، وحين نقرأ منه آيات الانذار فترتعد فرائصنا وترتجف أفئدتنا ، دون أن نستشف من هذه وتلك التربية القويمة والتوجيه السليم .

فمما لا ريب فيه — أن كتاب الله يفيض بالتربية التى تهدف

هذه تربية عامة تفيض بأجمل المعانى وأعذبها
وهى ذكرى لمن كان له قلب

* ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئةُ ، ادفعْ بالتى هى أحسنْ .

* قل لا يستوى الخبيثُ والطيبُ، ولو أعجبك كثرةُ الخبيثِ .

* ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكم .

* قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى .

* ومنْ يُؤتَ الحكمةَ فقد أُوتِىَ خيراً كثيراً .

* أتأمرون الناسَ بالبر وتنسوْن أنفسَكم . ؟

« قــل لا يســتوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث . . » .

« وذروا ظاهــر الاثم وباطنــه ، ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون . » .

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ســاء ما يحكمون . » .

« ليجزى الذين آمنوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . » .

وبعد ـ فان آيات القرآن من أولها الى آخرها ، دستور شامل للتربية الصحيحة والتوجيه السليم ، وهذا ما حدى بالمستشرق الأجنبى (كارليل) أن يقول :

« ان الاحساسات الصادقة الشريفة ، والنيات الطــاهرة الكريمة تظهر لى فضل القرآن . . الفضل الذى هو أول وآخر فضل وجــد فى كتاب ونتجت عنه جميع الفضــــائل على اختلافهــا » .

* * *

تـــربية الأمـــم

حاجة الأمم الى التربية لا تقل عن حاجتها الى المال والقوة والعدة ــ ذلك لأن الأمة لا يمكنها أن تشق طريقها الى المجد ، وتسلك سبيلها الى العلا ، الا اذا نالت نصيبا وافرا وقسطا كبيرا من التربية السليمة الصحيحة ــ ولذلك كان اهتمام القرآن الكريم بتربية الأمم اهتماما بالغا يسددها فى خطواتها ويقومها فى اتجاهاتها ، ويمكن أن تعتبر تربيته للأمة الاسلامية نموذجا صالحا لتربية الأمم .

فقد اهتم بتربيتها على الأخوة المؤسسة على التضامن والمودة والاتحاد ، والتعاون والصفاء والايثار :

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ــ انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم ــ وأصلحوا ذات بينكم ــ وتعاونوا على البر والتقوى ــ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ــ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ــ ولا تكونوا من المشركين ، الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون » .

وسما بها عن المواقف التى تجر الى النزاع ، وتزرع فى قلوبها الشقاق ... حتى تظل قوية البنيان ثابتة الأركان :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب

أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ؟ واتقوا الله ان الله تواب رحيم » .

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

واهتم بتربية الأمة الاسلامية على العزة والحرية ، والنفور من الذلة والعبودية مهما كان الثمن :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ..؟ ـ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ..

وحثها على الظهور بمظهر القوة ، وعلى الاستعداد للمفاجآت ، حتى تظل مهيبة الجانب ، لا تنال دولة طاغية ذرة من عزتها أو حريتها ، أو تعتدى على جانب من كرامتها :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

واهتم بتربيتها على الرجولة والشهامة وعدم مواطأة الأعداء ، وعدم التودد اليهم ، لأن ذلك يمهد الطريق الى استعبادها ووقوعها فى هوة الذلة والمسكنة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم

خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » .

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء الا أن تتقوا منهم تقاه ، ويحذركم الله نفسه والى المصير » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم » .

واهتم بتربيتها على المغامرة لأنها من عوامل تقدمها وانهاضها ومن أسباب عزتها ورفعتها :

« يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون — ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة» مراغما : مخلصا .

وليس أدل على اهتمام القرآن بهذه المغامرة من أن يفتح أمامها آفاقا فسيحة ، يتجلى فيها تفكير أفرادها ، وميـــادين واسعة تبرز فيها جهودهم ، فهو يشير الى أن ما فى الدنيا جميعا مسخر لهم ، ليدفع بهم الى الجد والكفاح ، والمثابرة والمنافســة :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا — الم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم

نعمة ظاهرة وباطنة ــ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

واهتم القرآن بتربية الأمة الاسلامية على الصبر والمصابرة خلال المحنة ، لأن فيها صقلا لتكوينها وتركيزا لحياتها ، وتثبيتا لوجودها ، واعزازا لشأنها ، وصونا لقدرها :

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين * الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ــ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ــ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور ــ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ــ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » .

واهتم بتربيتها على العدل حتى لا يصيبها الاضطراب فى شئونها :

« كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله

ان الله خبير بما تعملون ـــ واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظكم به ، ان الله كان سميعا بصيرا ـــ اتقوا الله وقولوا قولا سديدا » .

كما اهتم بتربيتها على الوفاء بالعهد لأنه من ألزم الصفات للأمم التى تبغى حياة كريمة مهيبة :

« واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ـــ ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها ـــ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ، انما عند الله هو خير لكم والله بما يعملون محيط » .

وحذرها الغدر والبغى والعدوان والبطر ، لأنها من عوامل انهيـــار الأمم :

« ... الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصـــوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين ـــ انما بغيكم على أنفسكم ـــ ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتـــدين ـــ فما اســـتقاموا لكم فاستقيموا لهم ـــ ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ـــ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ـــ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » .

وحثها على مكافحة الظلم وعدم السكوت عنه ، حتى تستتب حالها وتستقر أمورها :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب .. ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » .

* * *

الروح المعنوية

كثيرا ما تتعرض الأمة لأخطار جسيمة تقض المضجع ، وتقلق الأفكار ، وتنغص العيش ، وتسلب الهدوء ، فعندئذ تكون الأمة فى أمس الحاجة الى تقوية روحها المعنوية حتى لا تنهار ، ورباطة جأشها حتى لا يستولى عليها الفزع ، وثبات قلوبها حتى لا يتملكها الهلع والروع .

وكثيرا ما تتعرض الأمة لأزمات مستعصية تدعها سابحة فى أجواء من الوهم ، غريقة فى بحار من الوسوسة ، شاردة فى بيداء من الحيرة ، مستسلمة لكتائب القلق ونوازع الاضطراب .

وكثيرا ما تحيط بها النوائب . وتحدق بها الشدائد ، وتصوب اليها سهام المكائد وتصب عليها الأرزاء صبا ، فلا ينقذها من هذا كله سوى الصبر والثبات والاستقرار والايمان العميق ، والقرآن لم يفته أن يتولى تربية هذه المعانى فيها :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » .

اما اذا بدأت الأمة فى كفاح يحفظ لها عزتها ، ونضال يعيد اليها حريتها ، وجهاد يدك معالم ذلتها ومسكنتها ، وراحت تدفع بأبنائها الى المعمعة ليبذلوا دماءهم فى سبيل استقلالها ، وليقدموا مهجهم لتحقيق غاياتها ، وليجودوا بأرواحهم ليهبوا لهـــا حياة كريمة ، فان الأمة عندئذ تكون أكثر افتقارا الى الى تقوية الروح المعنوية ، فيحثها القرآن على الصــبر والثبـــات :

« ... اصــــبروا وصابروا ورابطوا واتقــوا الله لعلكم تفلحون ـــ اذا لقيتم فئـــة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

ويحذرها أن يتسرب الضعف الى نفوس هؤلاء الأتباع فتحن قلوبهم الى الاستسلام ، لأن الله القدير مؤيدهم وناصرهم ، وآخذ بأيديهم وموهن كيد أعدائهم :

« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما ـــ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ـــ فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » .

ويبث القرآن الثقة فى المجاهدين بأنفسهم معلنا أن النصر بيد الله وحـــده ، وأن القلة مع تأييد الله لها لابد أن تغلب الكثرة مهما بلغت من القوة :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ـــ ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قـــوم

لا يفقهون — والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار — وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » .

ويقوى القرآن فى نفوس المجاهدين الثقة بالنصر ، لأنهم انما يجاهدون فى سبيل الحق وحده ، ولأن وراء الحق قويا ينصر أهل الحق ، وهو يملك وحده جنود السموات والأرض :

« ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون — ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عزيزا حكيما — بل الله مولاكم وهو خير الناصرين — ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم — انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » .

والقرآن يقلل من أهمية العدو ، وفى هذا ما يقوى الروح المعنوية فى الجنود ، ويدفع بهم الى اقتحام المعركة والتضحية فى طمأنينة :

« لن يضروكم الا أذى ، وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون — لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

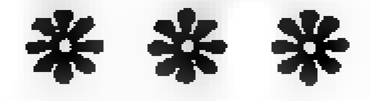
ويحارب التقهقر والتخاذل فى الجنود ، ويذكرهم بأن

للأعمال آجالا محدودة حتى لا يخشوا الموت ، وأن التقاعد والتحصن لا يدفعان الموت عمن حان أجله :

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير — الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين — وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا — لكل أجل كتاب — ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » .

ويكبر من شأن الهجرة والاستشهاد فى سبيل نصرة الحق :

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون — الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون — والذين قتلوا فى سبيل الله سيهديهم ويصلح بالهم » .



تربية الدعاة

ان المهمة الملقاة على كواهل الدعاة شاقة خطيرة ، ولذا كانت عنـــاية القرآن بتربيتهم عنـــاية كبرى ، تضىء الطريق الى قلوب الناس .

والرسل جميعا ـــ صلوات الله وسلامه عليهم ـــ هم المثل الكامل للدعاة ، وتعتبر تربيتهم نموذجا للتربية الرفيعة السامية لا سيما وأن مربيهم هو الحكيم الخبير .

ولما كان الداعية فى حاجة الى أسلوب سهل ممتزج باللباقة والسياسة فى عرض دعوته ، فقد راح القرآن يربى الدعاة تربية سياسية رفيعة تعينهم كثيرا على نجاح دعواتهم :

« لقد أرسلنا نوحا الى قومه ، فقال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين * قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رســـول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وانصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون * أو عجبتم أن جـــاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون .. ؟ » .

« والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لـــكم من اله غيره أفلا تتقون ؟ * قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة ، وانا لنظنك من الكاذبين * قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رســـالات ربى وانا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا اذ جعلكم

خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » .

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » .

وتلمس الدعـــوة الى المرونة بارزة فى أساليب الآيـــات القرآنية ، مما دل على اهتمام القرآن بهذا النوع من التربية ، والذى يتوقف عليه نجاح الدعاة فى معظم الأحايين :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحســـنة ، وجادلهم بالتى هى احسن — ولو كنت فظا غليـــظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر — قل يا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، انه لا يفلح الظالمون — وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملـــكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون — فان تولوا فقل أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ولاتضرونه شيئا ، ان ربى على كل شىء حفيظ — فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى — وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون » .

وللمنطق أهميته الكبرى فى مناقشـــة الدعوات ، ولذا تراه متجليا فى أساليب الدعاة :

« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله

الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين » .

« الذين قالوا ان الله عهد الينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين . ؟ » .

« أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون * وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » .

« قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟؟ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون * قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون» .

« أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » .

« يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد

القهار ؟ * ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

« قال فمن ربكما يا موسى ؟ * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » .

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون * او ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم » .

* * *

ويوجه القرآن الحكيم الدعاة الى التذرع بالصبر والاحتمال فى سبيل دعواتهم :

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا — قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ؛ والعاقبة للمتقين — فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » .

ويكافح القرآن فى الدعاة مرض اليأس الخطير ، فانه من معوقات دعواتهم ، حتى لا يلحق هممهم الضعف ، أو يصيب جهودهم الفشل ، أو تمنى دعواتهم بالخيبة :

« وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين — وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون — وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فان الله لغنى حميد — فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم » .

ويربى القرآن الدعاة على الاستخفاف بتمرد المعارضين واعراض المعرضين وعلى النظر اليهم نظرة استهانة بقدرهم وشأنهم :

« ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، انهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله الا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم — ومن كفر فلا يحزنك كفره ، الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ، ان الله عليم بذات الصدور — فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » .

ويشعر القرآن الدعاة بأن مهمتم تنحصر فى عرض دعواتهم وليسوا مسئولين عن ثمرة العرض ، لأنهم مبلغون فحسب ، حتى لا تضيع أوقاتهم سدى فى محاولة المتمادين فى الضلال ، وهم فى مسيس الحاجة اليها :

« ما على الرســول الا البلاغ ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ـ انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ـ فذكر انما أنت مذكر * لست عليهم بمســيطر ـ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعــا ، أفأنت تكره النــاس حتى يكونوا مؤمنين ـ انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين * وما أنت بهــادى العمى عن ضــلالتهم ، ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مســلمون ـ وما يستوى الأحيــاء ولا الأموات ، ان الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور * ان أنت الا نذير ـ فذكر ان نفعت الذكرى* سيذكر من يخشى » .

والقرآن يكافح فى الدعاة مرض الغرور ، فهم لم يزيدوا على كونهم بشرا القى الله على عواتقهم مهمــات ثقالا ، وبهذا تكون دعواتهم اقــرب الى قلوب الناس وابعد من نفورهم :

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبــوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ـ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون ـ ولا اقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا اقول انى ملك ـ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحــد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبــادة ربه أحــدا » .

والقرآن يكبر من شـــأن أتباع الدعاة ، ويحثهم على الاعتداد بهم وعدم الاستخفاف بشـــأنهم ، أو الاعراض عنهم مجاراة لأصحاب الأهواء ، وذوى القلوب الغافلة :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين — وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هـــو الذى أيدك بنصره وبالمؤمـــنين — يا أيهـــا النبى حســـبك الله ومن اتبعـــك من المؤمنين — ويا قـــوم لا أســـألكم عليه مالا ، ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطـــارد الذين آمنـــوا انهم ملاقـــوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ❋ ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون — واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » .

والقرآن اهتم كل الاهتمام بتربية الدعـــاة على الشجاعة وطبعهم بطابعها ، لأنها من مقومات الدعوات ، ولأنها ممـــا لا يستغنى عنها داعية يريد أن يشـــق طريق النجـــاح لدعوتـــــه :

« واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون » .

« قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون * انى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربى على صراط مستقيم » .

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » .

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

* * *

تربية النفس

حاجة النفس الى التربية كبيرة ، ولم يكن هناك ماهو أحط قدرا ولا أبخس ثمنا من نفس لم تنل نصيبها منها ، وليس من السهولة أن تربى الأمم أو تهذب الشعوب قبل أن تربى نفوس الأفراد وتهذب .

والقرآن الكريم حين يتعرض لتربية النفس ، فانه يدفع بها الى كل فضيلة ترفع قدرها وتحفظ كرامتها وتصون شرفها ، ويسمو بها عن كل رذيلة تبخس قيمتها وتثلم عرضها وتهدم اباءها — وفى هذا وذاك ، ما يجعلها تتكون تكوينا صالحا يصل بها الى ذروة المجد وقمة الشرف .

لم يدع القرآن فضيلة الا حث النفس عليها وأضاء لها طريق الوصول اليها ، ولم يدع رذيلة الا حذرها اياها ووضع العراقيل فى سبيلها ، وصور لها العاقبة فى صورة مشوهة تنفر منها الأنظار .

ومتى رغبت النفس فى كل فضيلة وتعففت عن كل رذيلة ، فلا يوجد من ينكر دماثة أخلاقها وسمو تربيتها .

ولكى يعمل القرآن على ايجاد شخصية ذات نفس صافية ، فقد أمدها بأكبر قسط من التربية السليمة الصحيحة ، لتسلك حياتها وهى أعز ما تكون جانبا ، وأعظم ما تكون شأنا ، فوضح لها طريق الخير وطريق الشر ، وأكد لها أن ما تعمله فى حياتها عائد عليها — ان خيرا فخير ، وان شرا فشر — وهى حرة فى أن تسلك الطريق الذى تستريح فيه وتطمئن اليه :

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها ــ قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ــ يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها »

ولكى يضمن القرآن وجود النفوس الصافية السليمة ، فقد وضح وقرر أن هناك مسئولية واقعة على النفس التى تتنكب الطريق السوى ، وأنها وحدها هى التى تتحمل وزرها فلا تستطيع أن تتنكر له ، ولا تنتظر أن يتحمله غيرها عنها ، أو أن يلقى عليها ما هو خاص بغيرها ، لأن توافر العدالة أمر مفروغ منه :

« كل نفس بما كسبت رهينة ــ ولا تكسب كل نفس الا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ــ ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما » .

والقرآن حين يوضح أن هناك يوما تحاسب النفس فيه حسابا دقيقا ، لا مفر منه ولا مهرب ، وأنها ستجد فى انتظارها ما عملته من خير وشر ، وأنه سوف لا ينفعها الندم ، ولا تشفع فيها الحسرة ، حين يوضح القرآن هذا كله ، فانما يهدف الى توجيه النفس الى الخير سالكة طريق الهدى ، وبذلك يضمن صلاحها واصلاحها :

« فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ــ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ــ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا ــ واتبعوا

احسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واســتكبرت وكنت من الكافرين — يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » .

***

الفضائل

السـمو الخلقى

سمو النفس عن الصـغائر يرجـع الى عظمتهـا وكبر قدرها ، وترفعها عن اللغو التافه يرجع الى علو همتها وسمو شأنها .

والنفس الصغيرة هى التى يشغلها دائما أتفه الأمور ، ويحتل اللغو الباطل قسطا كبيرا من تفكيرها ، ويطيب لها الصخب واللغط والثرثرة والتشدق لتنفق أوقاتها التى هى لديها أبخس من التراب فى غير منفعة .. !

ويهدف القرآن الكريم من وراء هذا النوع من التربية الرفيعة الى رفع النفس عن مستوى لا يليق بها ، ووضع لا يجدر بها فيمتدح قوما لا يأبهون بلغو الجاهلين الحمقى ، ولا يكترثون لبذاءتهم الوضيعة ، يسيرون محوطين بالاتزان والوقار فى سيرهم ، وتتطاول عليهم السنة أولئك الجاهلين الفرغاء ، فلا يؤثر هذا التطاول فى اتزانهم ، لأنهم يربأون بأنفسهم عن تضياع أوقاتهم فى الالتفات اليهم :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

« والذين لا يشـهدون الزور واذا مروا باللغـو مروا كراما » .

« واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » .

وهؤلاء يدفعهم أيضا سمو أخلاقهم الى عدم مجاراة السفهاء فى أخلاقهم ، فاذا أوذوا صبروا من غير جبن أو خوف ، واذا أسيىء اليهم قابلوا الاساءة بالاحسان ، ضنا بأخلاقهم أن تنحط حتى تهوى الى الحضيض :

« أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون » .

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » .

* * *

الاتـــزان والتروى

الاتزان والتـــروى صـــفتان محمودتان ، يعيش المتصف بهما آمنا فى حياته موفور الكرامة ، محفوفا بالوقـــار ... والهوج والتسرع صـــفتان مرذولتان ، لا ينكب بهمـــا غير الجاهل المتهور ، أو الأحمق الطائش ، ذلك الذى يســـبق لسانه تفكيره ، وتسبق يده عقله ، ويقذف بنفسه الى موارد الهلكة ، ويلقى بعنقه بين أغلال الندم والحسرة .

والانسان المتزن الذى لا يتصرف قبل أن يفكر ، ولايخطو قبل أن يقدر ، ولا يقدر قبل أن يدبر ، ولا يصطدم فى حياته بمشكلة تســـلبه هدوءه ، ولا يرتطم بعقبـــة تتحطم عليها سلســـلة أفكاره ، لأنـــه ينظر الى الأمور بمنظار التروى والدقة ، حتى لا يضطر الى أن يقود نفسه الى الندم ويسلمها الى الأسف :

والقرآن الكريم ما اجمله حـــين يربى النفوس على أن تطبع بطابع الاتزان ، ويحذرها التسرع حتى لا تندم على ما فعلت ، ولا تتحسر على ما أحدثت ، فتراه يقول :

« يا أيها الذين آمنـــوا ان جاءكم فاسق بنبـــأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتهم نادمين » .

ويؤكد ضرورة التروى والتثبت فى الســـاعات الحـــرجة

الدقيقة ، وفى ساعات النضال الخطيرة ، حتى تحمد العاقبة ، فتراه يقول :

« يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سـبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن القى اليكم السـلام لست مؤمنـا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا ».

والقاتل خطأ لا يعفيـه القرآن من العقاب جزاء طيشه وتسرعه ، حتي يربى على التروى والتثبت ، فيحرص عليهما ويتصف بهما :

« ... ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما » .

* * *

الاعتـــــــدال

مما لا ريب فيه أن الحياة دائما تتطلب الاعتدال فى كل شىء ، فالتفريط والافراط ممقوتان ، وكلاهما يلحق بصاحبه المشقة والعناء والقلق والاضطراب .

فالافراط يقود صاحبه الى الانهيار ، والتفريط يهوى به الى الحضيض .

والقرآن حين يربى النفس على التوسط والاعتدال فى أمور دنياها ودينها ، فانه يريد أن يصقلها بالحزم لتشـــق طريقها فى الحيـــاة الى النجاح ، ولتقطع مراحلهـــا آمنة لا يساورها قلق ، ولا يزعج صفوها تعكير ، ولا يستفز هدوءها تنغيص !

واهتمام القرآن بهذه التربية الرفيعة دليل على حاجة النفس اليها حاجتها الى ضروريات الحياة ومستلزماتها .

يربى القرآن النفس على الاعتدال فى انفاق أموالها حتى تسلم من الضعة والفاقة فيقول :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

ويمتدح قوما عرفوا بالحزم وحسن التصرف فى أمـــور حياتهم فيقول :

« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

ويربى النفس على الاعتدال فى المأكل والمشرب حتى تسلم من وصمة النهم والشره فيقول :

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » .

ويربى النفس على الاعتـــدال فى أمور دينها ، لطبعها بطابع هذا المبدأ ، وليؤكد ضرورته فى شئون الدنيا فيقول :

« ولا تجهر بصـــلاتك ولا تخافت بهـــا وابتغ بين ذلك ســـبيلا » .

* * *

يقظـة الضـــمير

ان الشخصية التى تمتزج بالفضـــائل امتزاجا شاملا ، وتستوعب أسمى الصفات وأكمل العادات ، هى التى تحمل بين جنبيها ضميرا حيا يقظا ، يحثها على السير فى الطريق السـوى ، يحول بينها وبين التخبط فى سـبيل الغواية ، ويثير فيها نخوة الشهامة والمروءة ، ويحملها على أن تعشق العزة والكرامة وسمو النفس .

أما الشخصية التى كتب عليها أن تكون حليفا للرذائل ، فهى التى تحمل بين جنبيها ضميرا ميتا خاملا ، يسول لها أحط الشـمائل ، ويزين لها سوء عملها ، ويصـدها عن مقاصد الخير ، ويحول نظرها عن أهداف البر والفلاح الى نزعات الشر والاعوجاج .

والمرء لا قيمة له اذا لم يكن يقظ الضمير ، والأمة لاتنتفع من أفرادها الا اذا كانوا ذوى ضمائر يقظة حية ، لاسيما الأفراد الذين بأيديهم مصائر الأمة وشئونها .

الأفراد فى الأمة أشبه بالأعضاء فى الجسم الواحد ، فاذا وهب لهذه الأعضاء الضمير اليقظ الحى ، أدى كل منها وظيفته ، وظل الجسم سـليما قويا ، والفـرد اذا أدى رسالته فى الحياة بتدبر وتفكر ، وحاسب نفسه على الفتيل

والقطمير ، وراقب ربه ، وخاف حسابه ، وصـــان كرامته من أن تلوكها الألسنة ، وصان نفسه من أن تصوب اليها سهام الطعن — كان فردا يقظ الضمير يعتز المجتمع به ويعتـــد .

والقرآن الكريم يعنى عنـــاية تامة بتربية الانســـان على الضمير الحى اليقظ ، فيشعره بأن الله تعالى مطلع على دقائق الأسرار ، وبواطن الأمور ، بل ومطلع على وساوس النفس وهواتف القلب ، وخائنة الأعين وخفايا الصدور ، وهو محاسب على كل هذا ، ومسجل له فى كتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها :

« لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وان تبدوا ما فى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » .

« ان الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء » .

«وهو الله فى السموات وفى الأرض ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » .

«يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . »

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفســـه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » .

«ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الإ هو ســـادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينمـــا

كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، ان الله بكل شيء عليم » .

والقرآن الكريم ينبه الى أن للضمير غفوة يسترق الشيطان فرصتها فيهوى بصاحبه الى درك الزلل والخطأ ، حتى لا يسمح الانسان لضميره أن يغفو أو يغفل ، وبذلك يظل كريما لا تخدش سمعته ، ولا تدنس صفحته :

« واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم * ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » .

وقد ندد القرآن بذوى الضمائر الميتة الذين ختم على قلوبهم ، وماتت احساساتهم وجمدت مشاعرهم ، وانغمسوا فى الضلال حتى استحبوه على الهدى :

« أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ * أم تحسب أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

« انك لا تسمعُ الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون . »

« أفرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ . . . »

***

آداب السـلوك

ان للمجتمع تقاليده ، وللسلوك آدابه ، ولهـذه التقاليد والآداب احترامها واجلالها ، ولا يحاول الشذوذ عنها الا أولئك الذين نكبوا بقصور فى عقولهم ، وسقم فى تفكيرهم .

وتربية القرآن النفس على مراعاة تقاليد المجتمع وآداب السلوك ، فيه تقدير واكبار لها ، ولا جدال فى أن العجب لآخذ منك مأخذه حين ترى القرآن يلم بهذه الآداب ، دون أن يغادر منها صغيرة ولا كبيرة ، محاولا صقل النفس بالذوق السـليم وطبعها بالطابع المحمود .

فالجالسون يجب عليهم أن يتفسـحوا فى المجالس ليجلس القادمون ، وينهضوا وقوفا للقادمين اذا لم يكن هناك أماكن لجلوسهم ، لأن الذوق السليم والمروءة تقتضيان هذا وتحتمانه عليهم :

« يا أيهـا الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجـالس فافسحوا يفسح الله لكم ، واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير » .

والزائرون يجب عليهم الاستئذان قبل الدخول ، والتسليم

اذا أذن لهم — كما يجب عليهم المبادرة بالرجوع من حيث أتوا اذا لم يجدوا أحدا ، أو وجدوا ولم يؤذن لهم ، فذلك أصون لكرامتهم وشعورهم ، وأكرم لشرفهم ومروءتهم :

« يا أيهـا الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتـا غير بيوتـكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هـو أزكى لكم ، والله بمـا تعملون عليم »

والخدم والأطفال يجب أن يكون لاختلاطهم بالنسـاء حد داخل البيوت ، وان كانت المصلحة تقتضيه ، فأوقات النهوض من الفراش والاواء اليه ، أوقات دقيقة حرجة ، قد تكون المرأة فيها بحالة لا يجمل بها أن ترى عليها :

« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيـابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشـاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . »

ويعيب القرآن سلوك الذين يتهاونون فى مروءتهم حين يتحايلون أن يدعوا الى الموائد فتراهم يتربصون بالأطعمة . فاذا ما تم نضجها تعللوا بالزيارة وغيرها ، وأسـهموا فى تناولها ، وليتهم يقفون عند هذا الحد من السقوط فى المروءة ، ولكنهم يأبون الا أن يقاسموا أهل البيت أوقاتهم ، غير مبالين بأن هذا التصرف المقيت ايذاء لهم واهانة لأنفسهم :

« ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق .. » .

وليس من أدب السلوك فى شيء ، ولا من حسن التصرف الذى يرضاه الذوق السليم ، أن يأتى الانسان البيت من ظهره، فان فيه قلبا للاوضاع ، ولا أن ينادى أهل المنزل من وراء الحجرات ، فان فيه احراجا لشعورهم واستخفافا بأقدارهم:

« ... وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون .»

« ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحـــيم . »

ومن الفظاظة التى يمجها الذوق السليم أن لا يحترم المرء من يكبره مقاما او سنا أو علما ، فيرفع صوته فوق صوته ، ويناديه مناداة فيها كثير من التهاون كما ينادى انسانا عاديا :

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صـــوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

ومن الفوضى أن يتهاون الانسان فى آداب الاجتماعات ،

ومن أهمها الاستئذان من الرئيس ، وعدم الشذوذ عن الاجماع ، وانتهاز غفلة الرئيس للهروب من القاعة متسللا ، لا سيما فى الاجتماعات المهمة التى تتعلق بشئون الأمة وحياتها :

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله ، ان الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . »

وما أهون أولئك الذين لايؤمنون بآداب السلوك فى الشارع ، فاذا سار أحدهم أمال خده تكبرا ، واذا مشى اختال فى خطواته عجبا ، وأسرف فى مشيه ، ولم يغضض من صوته :

« ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا — ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير . »

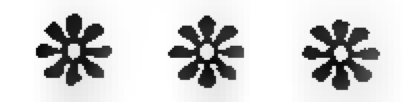
والقرآن الكريم يربى النفوس ويهذبها ، حتى تحفل بآداب الأخوة الانسانية ، فلا يسخر البعض من البعض الآخر ، ولا يعيب بعضهم بعضا ، أو ينادى بعضهم بعضا بما يكره من الألقاب ، فتظل الأواصر والروابط بخير :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا

خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

ومن آداب الأخوة الانسانية أن يحيى المرء أخاه ، وأن يرد الآخر التحية بخير منها او على الأقل بمثلها ، وذلك لتبقى الرابطة متينة قوية :

« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، ان الله كان على كل شيء حسيبا . »



ضريبة الانسانية

ان للانسانية ضريبة على كل فرد ، ولا يكاد فرد واحد يعجز عن تأديتها ، اللهم الا من ملأت الأنانية نفسه ، واستولت الأثرة على قلبه ، وهذا حرى بأن يحذف من المجتمع ، وتلفظه الانسانية لفظة مهينة ، . والقرآن حين يشعر المرء بهذه الضريبة وانها واجب تحتمه المروءة ، انما يهدف الى غرضين جليلين ساميين — اما الأول : فاثبات وجوده واظهار كيانه ، وطبعه بطابع الخير والبر والتعاون ، وتجنيده فى خدمة الانسانية ، واعداد نفسه للمعروف كلما ناداه الواجب واستصرخته المروءة — واما الثانى : فدفع المرء الى استغلال أوقات الفراغ فيما يفيد منه المجتمع ويسعد ، واستنفادها فى تدعيم أسس الخير التى يقوم عليها بناء كل أمة تبغى العزة والرفعة فى حياتها .

وأولى أنواع هذه الضريبة بالاشادة هو فعل الخير ، لأن الانسانية فى كل زمان ومكان متعطشة الى الخير الذى يشد أزرها ويؤيدها فى نضالها وكفاحها ، ويضفى على رسالتها فى الحياة اشراقا يزيدها رفعة وسموا ويكلل مسعاها دائما بالنجاح :

« ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، اينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ان الله على كل شيء قدير . »

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير . »

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ، واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . »

والاحسان لون من ضريبة الانسانية جدير بكل تقدير ، لأن فيه تدعيما للاخاء الانسانى ، وبه تتقارب القلوب وتتآلف ، وتترابط النفوس وتتصافى ، والاحسان اما خير يفعله الانسان بدافع من شعوره الانسانى واحساسه الأخوى ، واما عفو عن شرور الأشرار ، ومقابلة اساءة المسيئين بالاحسان ، وصبر على أذى المتعنتين من الظلمة والطغاة :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. ان الله مع الذين إتقوا والذين هم محسنون . »

« ... الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . »

« والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . »

والبر لون آخر من الوان الضريبة الانسانية له قدره ، لأنه جماع أنواع الخير ، وفيه تتجلى آيات الرحمة والاخاء والوفاء، ولا يكون المرء المعترف بضريبة الانسانية مؤديا لها الا اذا جند

نفسه للبر جهد المستطاع ، وليس بعجيب بعد هذا أن نرى كتاب الله يدفع الناس الى التعاون على البر ليعيشوا فى ظلال الأخوة الصادقة ، وقد أشار الى البر والى أن سبله جميعا تلتقى عند هدف واحد هو الخير ، وخلاصة هذه السبل : ايمان كامل ، ومعروف دائم ، وطاعة خالصة ، ووفاء بالعهود، وصبر على المكاره :

« ... وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب » .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون . »

والمرء حين يؤمن بأن هناك نعما عظمى أسبغها الخالق عليه ، يجب عليه أن يؤدى شكر هذه النعم ، وليس هناك أعظم شكرا لله من أن تدفع ضريبتك الانسانية فى حياتك ، ولقد ندد القرآن بالانسان الجحود المارق ، المنغمر فى نعم الله ، وهو فى نفس الوقت مصر على الكفران بها ، وعدم الاعتراف بما تفرضه الانسانية عليه من ضريبة ، فلم يحطم العقبة . فيفك رقبة ويحررها ، ولم يطعم اليتيم والمسكين فى يوم ذى مجاعة ، ولم يكن من المتواصين بالمرحمة :

« لقد خلقنا الانسان فى كبد . أيحسب أن لن يقدر عليه

أحد . يقول أهلكت مالا لبدا . أيحسب ان لم يره أحد . الم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو اطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة.ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . »

وهناك انسان يعيش فى حياته كما تعيش الأنعام ، يأكل ويشرب ويتمتع وكفى ، لا يشعر بوجوده كعضو فى المجتمع يجب أن يؤدى نحوه واجبا ، ويجهل أن للانسانية ضريبة على كل فرد منتسب اليها ، وهذه الضريبة لا يعجز عنها غنى أو فقير ، فالغنى يبذل من ماله فى سبيل الخير ، والفقير يبذل من وقته ليحث الأغنياء على فعل الخير ويأمر بالمعروف ما وسعه الجهد ويعمل — ان استطاع — فى كل لحظة للاصـــلاح بين الناس .

وقد سد القـــرآن أبواب الأعذار أمـــام العاجز عن تأدية الضريبة من ماله ، وفتح له طرقا من الخير يستطيع أن يسلكها دون حاجة الى المال واعتبر المتقاعد محذوفا من المجتمع ومن المهملين الذين لا خير فى وجودهم ، ولا فائدة من حياتهم :

« لا خير فى كثير من نجواهم ، الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما . »

* * *

الـــــرذائـــــل

الغـــــرور

ما اكثر ضحايا هذا المرض الاجتماعى الخطير ، الذى لا يكشف الا عن ظلمة فى العقل وحماقة فى القلب وجهالة فى النفس .

ان لهذا المرض مراتع خصبة من الثروة والجاه والسلطان، والحسب والنسب ، يفرغ فيها جراثيمه ، ويبذر بذوره، والجهل هو تربته الصالحة لانبات آثامه وشروره .

والمغرور يعيش فى برج من الخيال ، فيجنى على نفسه من حيث لا يشعر ، ويتردى بها فى الهاوية من حيث لا يدرى ، وأسوأ ألوان الغرور ذلك الذى يدفع ضحاياه الى التخبط فى أعمالهم حتى لايفرقوا بين الهدى والضلال، والحسنة والسيئة، بل يعدون الضلال هدى والسيئة حسنة ، والقرآن يكافح هذا اللون المرذول من الغرور فيقول :

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . »

والقرآن يندد بعقلية قوم سيطر عليهم الجهل والحمق ، وغرتهم كثرة أموالهم وأولادهم حتى ظنوا أنهم بمفازة من العذاب :

«و ما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بماأرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين. قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون . والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون . »

والقرآن يصور الغرور فى صورة الكارثة التى ستحل بالأرض لأنه سببها المباشر ، وفى هذا التصوير مكافحة لهذا المرض الخطير ، وحث على استئصال جذوره من النفوس التى تدين به :

« انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ... أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون . »

والقرآن يعمل على تحصين العلماء بوقاية ضد الغرور ، حتى يسلموا من شروره ، فيشعرهم أن العلم بحر لا ساحل له ، ليواصل المغامرة فيه الطموح الى أكبر قسط ممكن منه :

« وفوق كل ذى علم عليم ـــ وما أوتيتم من العلم الا قليلا ـــ وقل رب زدنى علما . »

* * *

رذيلة لها خطرها ، ولا يوحى بها غير الجهل ، ولا يشجع عليها سوى الغرور والعناد ، لا يمكن لمكابر أن ينجح فى أمر يوكل اليه ، أو يسدد فى مهمة تلقى على عاتقه ، وكيف يصيب النجاح أو السداد ، والعناد مسيطر على عقله ، والكبرياء مستحوذة على لبه ، والجهل متحكم فى تفكيره ؟

ثم انظر الى القرآن فى طريقته الرصينة يستعرض صفحة مشوهة لهذه الرذيلة للتنفير منها والقضاء عليها ، ويوضـــح نزعاتها لتكون أنت على بينة من أمرها ، فقد تكون نزعتهـــا الكبرياء القاتل :

« ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطـــان أتاهم ، ان فى صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه ، فاستعذ بالله انه هو السميع البصير » .

وقد تكون نزعتها العناد المستبد :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله ، قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير»

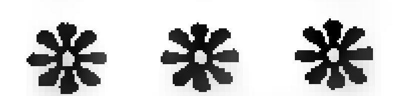
وقد تكون نزعتها الجهل المطبق :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

وقد تكون نزعتها الهوى :

« فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، ان الله لايهدى القوم الظالمين . »

« بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين . »



التمـــادى فى الغى

لون ممقوت من ألوان الرذائل المنكرة ، ومزيج مركب من الغفلة والحقد والعناد والمكابرة .

والقرآن يسلك فى تطهير النفوس من هذه الرذيلة مسلك الناصح المبصر بحقيقة الأوضاع .

فالمرزوءون بهذه الرذيلة يعيشون فى ظلمات الغفلة العميقة التى لا يفيقون منها ، وهم يعرفون الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، والرشد من الغى ، ولكنهم يصرون على تنكب الحق والهدى والرشد ، والاستجابة للباطل والضلال والغى، والقرآن حين يكشف عن حقيقة هذه الرذيلة فانه يهدف الى مكافحتها فى نفوس ضـــحاياها ، حتى يفيقـــوا من غفلتهم ، ويستهدفوا الخلاص من سكرتهم :

« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنهـــا ونسى ما قدمت يداه ، انا جعلنـــا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا » .
الأكنة : جمع كنان وهو الغطاء .

« وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون . ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون .

ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون . حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون . »

مبلسون : مستسلمون .

« ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم . »

وقد صور القرآن نوعا آخر من ضحايا هذه الرذيلة ، أخلد الى الغنى واطمأن به،وكلما أمهله الله تمادى فى غيه وضلاله ، وازداد عتوا واستكبارا ، والقرآن فى هذا التصوير يحذرهم مغبة هذه الغفلة وعاقبة هذا التمادى ، ليكافح هذه الرذيلة المقوتة ، وينبه الأذهان ويوقظ الأفئدة ، فان الله لابد آخذهم ومحاسبهم :

« ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » .

« ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون . فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » .

« فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون » .

« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم ان كيدى متين » .

***

الأنانيـــــة

الأنانية من أخطر الأمراض الاجتماعية ، لا يصاب بها الا ذو الشخصية الهزيلة ، والنفسية الحقـيرة ، والخلق الهين الوضيع .

وقديما لم يعترض طريق الدعوات الانسانية والرسـالات الاصلاحية ، سوى جيوش الأنانية من الحمقى الذى عز عليهم أن توهب الرسـالات والنبوات لغـيرهم ، كمـا أشـار القـرآن :

« بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما انزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين » .

« ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصـفحوا حتى يأتى الله بأمره ، ان الله على كل شيء قدير » .

« وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون * واذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم

حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » .

والقرآن يتولى مكافحة لون مرذول من هذا المرض الخطير، وهو لون كامن فى نفوس الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ويتمنون أن يستأثروا بالخير وحدهم ، وبالفضل دون سواهم :

« أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا » .

ويكافح القرآن شر ألوان الأنانية ، وهو اللون الذى يتحكم فى شرذمة من الناس ، يضنون بأموالهم حتى لا يشاركهم الفقير والمحروم فيها ، ويدفعهم البخل والشح الى أن يمسكوا، حتى لا يصيب اليتيم والمسكين شىء منها :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير » .

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » .

« قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ، اذا لأمسكتم خشية الانفاق ، وكان الانسان قتورا » .

النفـــاق

ويل للنفوس وويل للأمم وويل للشعوب من هذه الرذيلة المقوتة .. قاتلها الله من رذيلة مرذولة ..! تحل بين أرجاء الأمة فلا تلبث أن تقوض عرشها ، وتدك عظمتها ، وتحطم اباءها وتسحق كرامتها ، وتسلمها الى جلاد المذلة والهوان والصـــغار .

هذه الرذيلة الممقوتة لا يرتدى أثوابها غير الأوباش من الوضعاء ، أولئك الذين يحملون بين جنوبهم نفوسا حقـــيرة لا تقيم للكرامة وزنا ولا تعرف لها قدرا .

أنذر الأمة بالفناء اذا نافق زعماؤها القوى المســتبد ، وأنذرها بالضياع اذا نافق شعبها حكومته الظالمة الجائرة ، وأنذرها بالضعة والسقوط اذا أضحى للنفاق فوق أرضـــها ثمن يعطى ويمنح .

ان القرآن لم يأل جهدا فى التشنيع على هذه الرذيلة ، واظهار أشياعها بمظهر الانحطاط والنذالة لتنفر منها النفوس، فتربى تربية كريمة لا تشوبها شوائب الدناءة والخســة والضـــعة .

يصم القرآن المنافقين بالغدر والصغار ، لأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون ، ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » .

ويصمهم بالالتواء والصغار لأن لهم وجهين ولسانين :

« واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنـــا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون » .

وهناك نفاق من نوع خطير يستعان به فى كل دولة على صنع حجاب كثيف ، ، يستر عن الأعين ظلام عهودها ، ومبعثه الجبن أو زيغ الضمائر أو التزلف ، ولأشياع هذا النوع ألسنة راضية وقلوب ساخطة ، وقدرة على التلون .. يستقبلون العهد اذا أقبلت أيامه بالبشر والتصفيق ، ويودعونه اذا أدبرت أيامه باللعن والتنديد :

« ... واذا لقوكم قالوا آمنا ، واذا خلوا عضـــوا عليكم الأنامل من الغيظ ... »

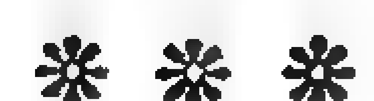
« ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا * مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » .

وكما فضح القرآن أمر المنافقين وهتك حجابهم ، أشار الى العقاب الذى ينتظرهم ، جزاء نفاقهم الذى عاشوا عليه وماتوا عليه ، وفى هذا التوضيح زجر للمرضى به ، وردع لمن هانت عليهم فى سبيله نفوسهم وكرامتهم :

« ... ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا »؛

« ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا » .

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هى حسبهم ، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » .



كفران النعمـــة

ان كفران النعمة رذيلة مرذولة ، تصيب دائما المريض فى خلقه ، الهزيل فى شخصه ونفسه . ولا يتصف بهـــا الا ذوو العقليات التافهة والنفوس الضعيفة .

القرآن يعرض عليك صورة صادقة للمصابين بهذه الرذيلة هؤلاء الذين يعيشون فى الحياة عيشة الصبية الصغار ، اذا أصابهم خير فرحوا واستبشروا ، وان أصابهم غـــير هـــذا حزنوا وجزعوا وتخبطوا ، والقرآن حين يعرض هذه الصورة انما يهدف الى مكافحة هذا الاضطراب ، والى بناء الشخصية على أساس ثابت من الاستقرار ، فيرضى صاحبها بالخير حين يصيبه ، ويصبر على الشر حين يلحقه :

«ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خـــير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيـــا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » .

« واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وان تصبهم ســـيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون » .

ويعرض القرآن صورة أخرى لضحايا هذه الرذيلة ، هؤلاء

الذين اذا مسهم الضر لجأوا الى الله ، حتى اذا كشف الله عنهم ما بهم من ضر ، نسوا هـذا الفضـل ، وأصموا آذانهم دونه :

« واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

« واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم ، وكان الانسان كفورا » .

« واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ، ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل ، وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصـحاب النـار » .

والقرآن يعرض صورة ثالثة لضحايا هذه الرذيلة ، هؤلاء الذين ينعم الله عليهم فيجحـدون ويكفرون ، ويلحقهم الشر فيهرعون اليه ، وهؤلاء هم أرذل الضحايا أخلاقا ، وأوضعهم نفوسا :

« واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبـه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » .

* * *

دروس فى الحيـــاة

ان الظن لا يغنى من الحق شيئا

الظن مرض اجتماعى له خطره فى هدم الروابط الاجتماعية، وزلزلة أواصر الأخوة ، وليت خطره يقف عند هذا الحد ، فكثيرا ما يشعل الجرائم ، ويخلق المآسى التى تنذر بأفدح النوائب ، وأوخم العواقب ، والظن وهم يتمسك به الجاهل ، ويتعلق بأهدابه الأحمق ، ويدين به المتخاذل ، ويتمادى كل من هؤلاء فى متابعة السير وراء هذا الوهم ، متخيلا اياه حقيقة لا مرية فيها ، حتى يهوى من غير أن يشعر ، وينحدر من غير أن يدرك .

ان الظان مريض بلون من الغرور ، فهو يدعى العلم من غير ما دليل فى يديه ، وقد يكون ادعاؤه العلم كذبا سببا فى أن يرمى بالاثم بريئا ، ويقذف بالباطل محقا ، وقد يترتب على هذا من الأحداث ما لا تحمد عقباه ، ومن الأمور مالا يسلم من التنغيص والتعكير .

وقد كان من الممكن للظان أن يتحقق اذا ظن ، وأن يتريث فى الحكم حتى يظفر بالدليل القاطع ، وألا يرمى بريئا بالاثم حتى تثبت ادانته ، وبذلك يسلم من تسويل النفس ، ونزغة الشيطان ، ويسلم من منغصات العيش ومكدرات الحياة .

* * *

ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه

اذا كتب الفشل لانسان فى حياته تشعبت أفكاره ، وتشتت مشرقة ومغربة ، فيقطع مرحلة جهـــاده ليخرج منهـــا صفر اليدين خائب الأمل .

واذا قدر النجاح لانسان فى حياته اتحدت أفكاره ، وسارت فى اتجاه واحد لا التواء فيه ولا اضطراب ، فيقطع مرحـــلة كفاحه ليصافح الفوز ويعانق النجاح .

وكثير أولئك الذين يتخبطون فى حياتهم بدون وعى ، فيوزع تفكيرهم على ألف هدف ، وتبعثر جهود عقولهم فى ألف غاية ، وقل — من كانت هذه حالهم — أن يصيبوا هدفا أو يصـــلوا الى غاية .

وقليل أولئك الذين يسيرون فى حياتهم ، وهم على أكبر قسط من الحزم والتبصر ، فيصوب تفكيرهم الى هدف واحد،وينصب على غاية واحدة ، فيصيبون الهدف ويدركون الغاية . ولقد كان جميلا من القرآن الكريم أن يوجه النفوس فى هذا المضمار توجيها سليما قويما ، ويلفتها الى أن للمرء عقلا واحدا ، فليس من الحزم فى شىء أن توزع جهوده لأنه متى وزعت جهوده ، ضؤلت ثمرته وضعف انتاجه .

* * *

وتلك الأيام نداولها بين الناس

للأمم والدول والأفراد أيام ، حينا تصفو وحينا تكدر ، وطورا تضيء وطورا تظلم ، وتارة تكون يسرا ويمنا ورخاء ، وتارة عسرا وشقاء وبلاء — درس فى التربية يسوقه القرآن الى النفوس الجائرة ، حتى لا تتمادى فى غيها الأمم ابان فتوتها ، ولا الدول ابان سطوتها ، ولا الأفراد ابان قوتهم ، ويسوقه الى النفوس الخاملة المتواكلة حتى تستنهض الأمم هممها ، وتستنهض الدول عزائمها ، ويستنهض الأفراد نشاطهم .

درس فى التربية يسوقه القرآن الى من ابتسمت لهم الأيام ، حتى لايستحوذ عليهم الغرور فيذهب بأيامهم ، ويسوقه الى من عبست لهم الأيام حتى لا يستولى عليهم اليأس فيغلق باب الأمل فى وجوههم .

درس فى التربية لمكافحة الغرور حتى يحل محله السداد ، وفى السداد كل هناءة ويمن ، ولمكافحة اليأس ليحل محله الأمل ، فتستنهض الهمم ، وفى استنهاض الهمم كل سعادة وخير .

* * *

أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى
أمن يمشي سويا على صراط مستقيم ؟

الحياة طريقان لا ثالث لهما : طريق مستقيم لا عوج فيه ، وآخر معوج لا استقامة فيه ، والأول طريق مضيء ممهد لا يشقى سالكه ولا يتعب ، والآخر مظلم غير ممهد ، لايستريح فيه سالكه ولا يطمئن اليه ، وهذان الطريقان هما الخير والشر ولقد هدى الله الانسان كليهما ، فوضع فيه العقل الذى يميزهما به ، حتى لا تكون له حجة على الله بعد هذا .

فما أعجب أمر هذا الانسان الذى يرى أن طريقه الذى يسلكه ملىء بالأشواك مكدس بالأخطار ، تتراقص على طوله وعرضه أشباح القلق وتدق أجراس الخطر ، ومع هذا كله فان نفسه لتسمح له بأن يجتاز هذا الطريق الوعر المظلم مكبا على وجهه ، متحملا كل مشقة ، مستعذبا كل بلاء ، مستطيبا كل ألم وشقاء ..

ما أكثر حمق الانسان الذى يسلك هذا الطريق وفيه ما فيه، ويدع طريقا آخر ممهدا مضيئا ، يستطيع أن يجتازه آمنالاينالله وصب ، ولا يدركه نصب ، ولا يساوره قلق ، ولا يزعجه خطر

هكذا يحاول القرآن بأبلغ الأساليب المنطقية تربية النفوس، تربية تصلح حياتها وتقوم أمورها .

ولا يحيق المكر السيء الا بأهله

هناك نفوس ضعيفة طبعت على الشر ، وجبلت على الخبث لا يحلو لها الا أن تتفنن فى حبك الدسائس وصياغة المؤامرات ، ولا يطيب لها سوى أن تعيش فى أفق ملبد بالقلاقل لتنشرجراثيم خبثها واجرامها ، وتروج بضاعتها ، فكلما اشتعلت الفتن واستعرت المحن ورقصت الأحداث الجسام ، ترعرعت حرفة هذه النفوس الساقطة الدنيئة وازدهرت ، وراجت سوقها وارتفعت قيمتها .

ان هذه النفوس الضعيفة كثيرة ، تنتشر فى المجتمع انتشار البعوض فى البرك والمستنقعات ، حتى لقد أصبح الشروالخبث جزءا لا يتجزأ من حياتها ، ولا تستطيع العيش بغيرهما .

وهذه النفوس الموبوءة فانها تتعامى عن كل شيء ، تتعامى عن الخسة التى تنغمس فيها ، وعن الصفاقة التى تتقمصها ، وعن الوضاعة التى تصمها ، وتتعامى أيضا عن الحفرة التى تقع فيها ، والهوة التى تتردى فى قاعها — وقد يسلم مشعل الفتن من شررها ، ومثير المحن من غبارها ، ومحرك القلاقل من عواقبها ، ولكن لابد لحافر الحفرة من الوقوع فيها ، وحابك الدسائس من ذوق صابها ، وغارس السوء من جنى ثماره ! .

* * *

تــــربيــة عامــــــة

هذه تربية عامة تفيض بأجمل المعانى وأعذبها
وهى ذكرى لمن كان له قلب

* ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئةُ ، ادفعْ بالتى هى أحسنْ .

* قل لا يستوى الخبيثُ والطيبُ ، ولو أعجبك كثرةُ الخبيثِ .

* ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم .

* قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى .

* ومنْ يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتِىَ خيراً كثيراً .

* أتأمرون الناسَ بالبر وتنسوْن أنفسكم . ؟

* فلا تزكوا أنفسكم هو أعلمُ بمن اتقى .

* وأولو الأرحامِ بعضُهم أولى ببعضٍ .

* إن الظنَّ لا يغني من الحقِّ شيئاً .

* ولا تَقْفُ ما ليسَ لك به علمٌ .

* وأن ليسَ للانسانِ إلا ما سعى .

* لا يكلفُ الله نفساً إلا وُسعَهَا .

* ولا تَزِرُ وازرةٌ وزْرَ أخرى

* قلْ كلٌّ يعمل على شاكلتِهِ .

* ولا تبخسُوا الناسَ أشياءَهم .

* إن ربكَ لبالمرصاد .

* * *

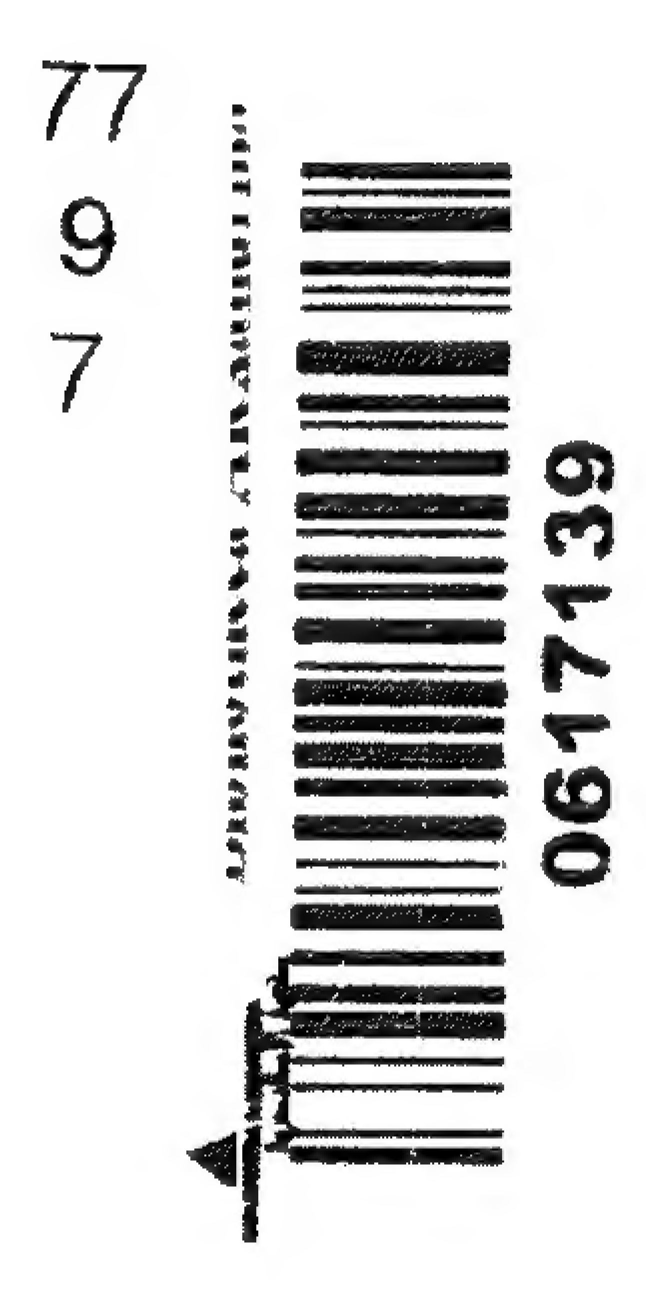
محتويات الكتاب

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٤٥ / ١٩٧٧
الترقيم الدولى ٣٢ — ٧٠٥٣ — ١٩٧٧

دار العلوم للطباعة
القاهرة، ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت ٣١٧٤٨٠

دار الاعتصام



١٥ قرشا